ويقال إن الخرافات التى نسجت حول الرقم ١٣ مصدرها عشاء السيد المسيح الاخير مع تلاميذه الاثنى عشر ، وجلسوا على مائدة واحدة فكان مجموعهم ثلاثة عشر ، وكان واحد من التلاميذ خائنا هو يهوذا الاسخريوطى الذى سلمه . لذلك كان اناس يتشاءمون من الجلوس ثلاثة عشر شخصا على مائدة واحدة ، لأن ذلك نذير شؤم بسوء أو موت يقع لاحدهم خلال سنة على الاكثر ، ثم سرى التشاؤم من الرقم ١٣ حتى شمل كل شىء ولم يقتصر على مائدة الطعام .

الهلال

جميع الامم تقريبا تتفاءل بالهلال الجديد ، وكثيرا ما يرى الناس فى مصر وغير مصر قد تهللت وجوههم استبشارا لرؤية الهلال فى أول الشهر القمرى وهم يدعون الدعوات

وان العامة فى مصر يتناولون قطعة من العملة الفضية ويديرونها نحو الهلال لأول ولادته تيمنا ، ولا يصنعون مثل ذلك فى الذهب لانهم يتطيرون به ، وهكذا يفعلون فى الشام ويزيدون عليه ان يتمتم الواحد بعبارة مثل قوله «يهلك ويبتهلك» ويجعلك علينا شهرا مباركا ،

وفى انجلترا يتشاءمون من النظر الى الهلال المولود حديثا من وراء زجاج النوافذ .

والمرجح ان الانسان الاول كان يعتقد انه اذا ظهر القمر جديدا وجب عليه ان يخرج الى العراء للترحيب به بوسائل كانت معروفة عنده وكان لا يلزم منزله وينظر اليه من ثقوب الجدران والاعوقب على ذلك .

وأن الانسان نظر الى القمر من زمان بعيد نظرة التفاؤل والاستحسان ، والانسان الاول معذور فى تفاؤله بالهلال الجديد اذ هو يعيش فى خطر المداهمة والغارة ، فالهلال يكشف له عن ظلمات الليل ويؤمنه بعض التأمين ، لذلك كان القمر من اقدم الالهة التى عبدها الناس بل اقدمها . وان العرب اشتقوا لفظة تهلل من الهلال ،

ولا نزال نرى كثيرا من الاعياد حتى الاعياد المسيحية تقرر تبعا لأوجه القمر ؟

« تم البحث » ابراهيم تادرس بشاى

٢ ـ بديع الزمان الهمذانى

للدكتور عبد الوهاب عزام

تكلم الأستاذ فى المقالة الاولى عن الحال السياسية والأدبية فى القرن الرابع ، وعن أسرة بديع الزمان وسيرته الى أن رحل الى نيسابور

وقد وقع خطأ مطبعى أثناء ترتيب المقالة فوضعت الأسطر من الثالث الحادى والعشرين من صفحة ٥٠١ فى النهر الأيمن فى غير مكانها ، وكان ينبغى أن توضع بعد السطر التاسع من النهر الأيسر فى الصفحة نفسها

فهذا الاسماعيلى هو ، فيما يظهر ، أحد هؤلاء الاسماعيلية الذين أكرموا مثواه فى جرجان .

وفى رسالة الى أبيه يقول « وقد كان رسم أن أعرفه سبب خروجى من جرجان ، ووقوعى فى خراسان ، وقد كانت القصة أنى لما وردت من ذلك السلطان حضرته التى هى كعبة المحتاج . لا كعبة الحجاج ومشعر الكرام ، لا مشعر الحرام ، ومنى الضيف لا منى الخيف ، وقبلة الصلات ، لا قبلة الصلاة ، وجدت فيها ندماء من نبات العام ، اجتمعوا قبضة كلب ، على تلفيق خطب ، ازعجنى من ذلك الفناء ، وأشرف بى على شرف الفناء ، لولا ما تدارك الله بجميل صنعه وحسن وقعه ، ولا أعلم كيف احتالوا ، وما الذى قالوا ، لكن الجملة ان غيروا السلطان وأشار على اخوانى ، بمفارقة مكانى ، وبقيت لا أعلم أيمنة أضرب أم شآمة ، ونجدا أقصد أم تهامة ،

ولو كنت من سلمى أجا وشعابها لكان الحجاج على دليل

قد علم الشيخ أن ذلك السلطان سماء اذا تغيم لم يرج صحوه . وبحر اذا تغير لم يشرب صفوه ، ورملك اذا سخط لم ينتظر عفوه فليس بين رضاه والسخط عرجه ، كما ليس بين غضبه والسيف فرجه

. . . . . .

ونظرت فاذا أنا بين جودين ، اما أن أجود بماسى ، وإما أن أجود براسى ، وبين ركوبين إما المفازة وإما الجنازة ، وبين طريقين : إما الغربة ، وإما التربة ، وبين فراقين : إما أن أفارق أرضى أو أفارق عرضى ، وبين راحلتين إما ظهور الجمال ، أو أعناق الرجال ، فاخترت السماح بالوطن ، على السماح بالبدن ، وأنشدت :

اذا لم يكن الا الاسنة مركباً فلا رأى للمضطر الا ركوبها »

ولست أدرى من هذا السلطان . وأحسبه فخر الدولة ابن

بويه ، وأما شمس المعالى فلم يكن سلطانا فى جرجان ذلك الوقت

فى نيسابور

ورد نيسابور فكتب الهابى بكر الخوارزمى ، وهو شيخ أدبائها وأحد أغنيائها ، أنا لقرب الاستاذ أطال بقاءه (كما طرب النشوان مالت به الخمر) ومن الارتياح لفقائه ، (كما انتفض العصفور بلله القطر) ومن الامتزاج بولائه ، (كما التقت الصهباء والبارد العذب) ومن الابتهاج بمرآه (كما اهتزت البارح الغصن الرطب) فكيف نشاط الاستاذ لصديق طوى اليه ما بين قصبتى العراق وخراسان ، بل مابين عتبتى نيسابور وجرجان ، وكيف اهتزازه لضيف فى بردة جمال ، وجلدة حمال

رث الشمائل منهج الاثواب بكرت عليه مغيرة الاعراب

وهو أيده الله ولى انعامه ، بانفاذ غلامه ، الى مستقرى لافضى اليه بسرى ، إن شاء الله تعالى ،

ويؤخذ من كلام البديع أنه ذهب الى دار الخوارزمى فلم يحسن لقاءه ، أو لم ترض نفس الهمذانى بهذا اللقاء فكتب اليه ، الاستاذ ابو بكر والله يطيل بقاءه ازرى بضيفه ان وجده يضرب اليه آباط القلة فى اطمار الغربة فأعمل فى رتبته انواع المصارفة ، وفى الاهتزاز له أنواع المضايقة من إيماء بنصف الطرف ، واشارة بشطر الكف ، ودفع فى صدر القيام ، عن التمام ، ومضغ الكلام ، وتكلف لرد السلام ، وقد قبلت تربته صعرا ، واحتملته وزرا ، واحتضنته نكرا وتأبطته شرا ، ولم آله عذرا ، فان المرء بالمال ، وثياب الجمال ، ولست مع هذه الحال ، وفى هذه الاسمال ، انتزز صف النعال ، فلو صدقته العتاب ، وناقشته الحساب ، لقلت ان بوادينا ثاغية صباح ، وراغية رواح ، وناسا يجرون المطارف ، ولا يمنعون المعارف وفيهم مقامات حسان وجوههم وأندية ينتابها القول والفعل ولو طوحت بأبى بكر أيده الله طوالح الغربة ، لوجد مثال البشر قريبا ، ومحط الرحل رحيبا ، ووجه المضيف خصيبا ، ورأى الاستاذ ابى بكر أيده الله فى الوقوف على هذا العتاب الذى معناه ود ، والمر الذى يتلوه شهد ، موفق ان شاء الله تعالى ، فرد الخوارزمى رداً حسنا وسعى سعاة السوء بين الرجلين . ثم جمع بينهما الشيخ ابو الطيب فلم يحمد ذلك الاجتماع . ثم كانت بينهما المناظرة الأولى فى دار السيد أبى على أحد الكبراء فى نيسابور ، فتناظرا فى ارتجال الشعر مناظرة ظهر فيها غلب البديع وقد غضب من قطع الخوارزمى انشاده عليه فصمت برهة ، يقول الهمذانى : ثم عطفت عليه وقلت يا أبا بكر ان الحاضرين قد عجبوا من حلمى ، أضعاف ما عجبوا من علمى ، وتعجبوا من عقلى ، أكثر مما تعجبوا من فضلى ، وبقى الآن ان يعلموا أن هذا السكوت ليس عن عى ، وان تكلفى للسفه أشد استمرارا من طبعك ، وغربى فى السخف أمتن عوداً من نبعك ، وسنقرع باب السخف معك ، ونفترع من ظهر السفه مفترعك ، فتكلم الآن . فقال لى أنا قد كسبت بهذا العقل دية أهل همذان مع قلته ، فما الذى أفدت أنت بعقلك مع غزارته ، فقلت : أما قولك دية أهل همذان فما اولانى ان لا أجيب عنه ، لكن هذا الذى تمدح به وتبجح وتشرف وتصلف ، من أنك شحذت فأخذت ، وسألت فحصلت واجتديت فاقتنيت ، فهذا عندنا صفة ذم يا عافاك الله

ذهب البديع الى بيت الخوارزمى واصطلحا . ثم شاع بين الناس أن البديع غلب ، فكتب الخوارزمى اليه يتهمه بأنه أشاع هذا الكلام ، ويقترح مناظرة أخرى ، فكانت المناظرة الثانية فى بيت الشيخ أبى القاسم الوزير . وحضرها عظماء نيسابور ، وكانت مباراة الارتجال والترسل والنحو واللغة ، وقضى بالفلج للهمذانى فلما خرج لقيه الناس بالتقبيل ولم يستطع الخوارزمى الخروج حتى جنه الليل

وفى رسائل الهمذانى تفصيل المناظرة التى قضت له بالفلج . وينبغى الا ينسى القارىء أن هذا قول أحد الخصمين ، ولست أتهم الهمذانى بالكذب الصراح ، ولكنى لا أبرئه من محاباة نفسه . ثم ينبغى أن تذكر أن الخصمين ليسا سواء : أحدهما شيخ طائر الصيت يخشى أن يؤخذ عليه ماينقص من قدره ، والآخر شاب طامح الى الصيت يريد أن يبنى مجده على هزيمة قرنه ، وهو لا يخسر كثيراً إن غلب ، وهذا مظنة أن يستعظم الحاضرون ظفر البديع ولو كان قليلا وهفوة الخوارزمى ولو كانت مما يغتفر أمثالها . ثم أظن أن بعض النيسابوريين كانوا يحسدون الخوارزمى ، ويودون أن يذهب بمجده ذلك الضيف الشاب الجميل الطلعة ، الخفيف الروح .

وكان الخوارزمى ، فيما يظهر ، متكبراً ذا جفاء ، قليل الوفاء : قال الصاحب بن عباد حين جاءه نعيه :

أقول لركب من خراسان قافل : أمات خوارزميكم ؟ قيل لى نعم
فقلت اكتبوا بالجص من فوق قبره ألا لعن الرحمن من كفر النعم

ويقول أبو سعيد الخوارزمى :

بو بكر له أدب وفضل ولكن لا يدوم على الوفاء
مودته اذا دامت لخل فمن وقت الصباح الى المساء

ثم لم تكن المناظرة فى صميم الأدب من الشعر والترسل ، بل كانت فى البديهة والارتجال والحفظ . قال الهمذانى وهو يتحدى خصمه : « ومثال ذلك أن أقول لك أكتب كتاباً يقرأ منه جوابه هل يمكنك أن تكتب ؟ أو أقول لك أكتب كتاباً على المعنى الذى أقترح لك ، وانظم شعراً فى المعنى الذى أقترح ، وافرغ منهما فراغا واحداً . هل كنت تمهله ساعداً ؟ وأقول لك اكتب كتاباً فى المعنى الذى أقول وأنص عليه ، وانشد من القصائد ما أريده من غير تثاقل ولا تغافل ، حتى اذا كتبت ذلك قرىء من آخره الى أوله ، وانظمت معانيه اذا قرىء من أسفله هل كنت تفوق لهذا الغرض سهما أو تجيل قدحا أو تصيب نجحا ، أو قلت لك أكتب كتابا اذا قرىء من أوله الى آخره كان كتاباً ، فان عكست سطوره مخالفة كان جوابا الخ ، وقد أجاب الخوارزمى على هذا كله بقوله : « هذه الأبواب شعبذة ، وهى ان لم تكن شعبذة فهى ليست من الادب ، وان دلت على توقد الذكاء وسرعة البديهة .

ولست اقول إن البديع ليس أعلى من الخوارزمى فى الأدب مقاما ، ولكن أقول ما غلب بديع الزمان أبا بكر الخوارزمى هذه الغلبة التى تصورها رسائل الهمذانى ويرويها الأدباء .

اغتبط بديع الزمان بنيسابور ولقى من سراتها حفاوة واكراما يقول فى رسالة الى أبيه عن صديق كان قد وعده اللحاق به : « وكان سألنى أن أرود له منزلا ماؤه روى ، ومرعاه غذى ، وأكابه لينهض اليه راحلته . فهاك نيسابور ضالته التى نشدتها ، وقد وجدتها ، وخراسان منيته التى طلبتها ، وقد أصبتها . وهذه الدولة بغيته التى أردتها ، فقد وردتها ، فان صدقنى رائداً ، فليأتنى قاصدا . . . وأما أنا وأخبارى بهذه الناحية فنتقلب فى ثوب العافية ، موفر بهذه الحضرة مرموق بعين القبول » (١)

وقد كتب كثيرا من رسائله الى جماعة من رؤساء نيسابور وهى تدل على ما كان بينه وبينهم من مودة . وفى نيسابور لقى بنى ميكال ومدحهم . وفى رسائله واحدة الى ابى جعفر الميكالى يشكو فيها تقصيره فى تعظيمه : « وهل كنت الا ضيفا هاه متزع شاسع ، وأداه أمل واسع ، وحداه فضل وان قل ، وهداه رأى وان ضل ، ثم لم يلق الا فى آل ميكال رحله ، ولم يصل الا بهم حبله ، ولم ينظم الا فيهم شعره ، ولم يقف الا عليهم شكره . . . ودخلت مجلسه وحوله من الاعداء كتيبة فصار ذلك التقريب ازورارا . وذلك السلام اختصارا ، والاهتزاز ايماء ، والعبارة اشارة » ويقول فى رسالة أخرى اليه : « وأعرفه انى ما أطوى مسافة مزار الا متجشما ، ولا أطأ عتبة دار الا متبرما . ولست كمن يبسط يده مستجديا ، أو ينقل قدمه مستغذيا . فان كان الامير الرئيس ، أطال الله بقاءه يسرح طرفه فى طامح أو طامع ، فليعد للفراسة نظراً » (٢) ثم ينقلب عتابه هجاء فيقول فى رسالة الى ابن ميكال « اشهد لئن صدق البحترى فى اللامية ، لقد صدق الاعشى فى الصادية ، وإن وصف الدريدى فى المقصورة ، فلقد تغير الامر عن الصورة ، وإن كان كالآخر الأول فما أحوج الكتب الى المقراض ، وأكذب السواد على البياض — الى أن يقول : اللامية قول البحترى :

ثلاثة عجب تنيك عن خبرى فيها وعن خبر الشاه ابن ميكال

والصادية قول الاعشى :

كلا أبويكم كان فرعى دعامة ولكنهم زادوا وأصبحت ناقصا

يريد الهمذانى أن يقول أن بنى ميكال كانوا كما قيل فيهم ولكن هذا الرئيس من بينهم قصر عن شأوهم .

ونجد الهمذانى فى نيسابور يكتب الى الشيخ العميد مستجزا وعده فى توليته بعض الأعمال : « فهل للشيخ أن يلطف بصنيعته لطفا يحط عنه درن العار ، وسمة التكسب والافتقار ، ليخف على القلوب ظله ، ويرتفع عن الأحرار كله ، ولا يثقل على الاجفان شخصه باتمام ما كان عرضه عليه من أشغاله ، ليعلق بأذياله ، وليستفيد من خلاله ، فيكون قد صان الفضل عن ابتذاله ، والأدب عن إذلاله ، واشترى حسن الثناء بجاهه كما يشتريه بماله » (٣)

وفى نيسابور أملى المقامات . وسيأتى الكلام فيها .

يتبع عبد الوهاب عزام

(١) الرسائل ص ٩٢

(٢) الرسائل ص ٤٦ — ٤٧

(٣) الرسائل ص ٧٣